

نسق السلطة وسؤال المثقف في رواية العلامة لبنسالم حميش

The System of Power and the Question of the Intellectual in the Novel –

AL'Allama- by Bensalem Himmich

ط. د. ليندة بولحية¹، أ. د. هشام مداقين²

¹مخبر الشعرية الجزائرية جامعة المسيلة (الجزائر) linda.boulahaia@univ-msila.dz

²جامعة المسيلة (الجزائر) hichem.medaguine@univ-msila.dz

تاريخ النشر: 2025/07/31

تاريخ القبول: 2025/07/20

تاريخ الاستلام: 2025/04/06

Abstract:

The new historical novel has been able to open up to the Arab present, through its absorption of the narrative heritage, examining and scrutinizing its aesthetics, and reproducing it according to a new perspective and vision based on criticism and interpretation. This is what we find in the novel "AL'Allama" by Bensalem Himmich, which is a model of a shared vision created by the author between the era of Ibn Khaldun and the present reality. Through this novel, Himmich presents the actual activity of the intellectual and also interprets the contents of systems and patterns of power, by revealing the dark aspects behind the Khaldunian experience within the courts of authority. These pages seek to reveal and shed light on these dimensions.

Keywords: Power system. Intellectual. Historical novel.

ملخص البحث:

استطاعت الرواية التاريخية الجديدة؛ الانفتاح على الراهن العربي، من خلال استيعابها للتراث السردى، والبحث في جمالياته قراءة وتمحيصا، وإعادة إنتاجه وفق منظور ورؤية جديدة مبنية على النقد والتأويل وهذا ما نجده في رواية العلامة لبنسالم حميش التي تعد نموذجا للرؤية المشتركة؛ التي خلقها المؤلف بين عصر ابن خلدون والواقع الحاضر؛ بعرض النشاط الفعلي للمثقف، وكذا تأويل مضامين منظومات وأنساق السلطة؛ من خلال الإبانة عن الجوانب المظلمة وراء التجربة الخلدونية خلف بلاط الحكم، وهذا ما تسعى هذه الصفحات إلى إبانته وتسليط الضوء عليه.

الكلمات المفتاحية: نسق السلطة. المثقف. الرواية التاريخية.

مقدمة:

حقق الخطاب الروائي العربي الحديث؛ مكانة مهمة من ضمن الأنواع الأدبية الأخرى؛ بانفتاحه على شتى الفنون والميادين من بينها التاريخ، فهو يتقاطع -الخطاب الروائي- مع المادة التاريخية، ويتفاعل معها، ويشق مادته السردية منها، ليتحول بذلك إلى جنس أدبي جديد؛ هو الرواية التاريخية، وهنا يصبح التاريخ من خلال الرواية "مرآة نرى فيها الحاضر، ومن ثم فإن النقد يوجه إلى فهم الماضي وفهم الحاضر على السواء، وهنا يتداخل التاريخ والرواية ويصبح كل منهما صورة مرآوية للآخر"¹، فالرواية التاريخية الحديثة خرجت عن قداسة وسلطة التاريخ؛ الذي كانت عليه في الكلاسيكية ووضعت تحت مجهر النقد والتمحيص؛ لاكتشاف الجوانب المظلمة من الماضي، التي هي صورة عن الواقع وأسبابه، حيث تعالج قضايا مؤثرة وملموسة ذات امتداد للحاضر، وبالتالي تعيد تقديم هذا التاريخ بطريقة إبداعية ذات بعد فني وجمالي.

وإذا كان التاريخ يشكل بالنسبة للروائي مرجعاً أو مادة ينطلق منها في روايته، فإن الخيال يتجاوز ذلك؛ إذ أصبح "جزءاً من البناء الذي يستقر عليه التاريخ"²، يمكن من خلاله إعادة بعث الحياة في التاريخ، ويعتمد هذا على رؤية الفنان وبراعته في التعامل مع المكون التاريخي.. والتاريخ هنا يبدأ حين تنتهي الرواية، إننا هنا أمام ما يمكن تسميته إلباس التاريخ الفكرة التي ينطلق منها الروائي"³، ويدخل التأويل في صناعة عوالم مختلفة عن الحقيقة التاريخية؛ إذ يتجاوز التاريخ ويعيد إنتاج، مراجعة ومساءلة هذا التاريخ، من خلال الاهتمام بالتفاصيل التي غيبتها أو سكت عنها الخطاب التاريخي، يتمازج العنصر التاريخي (المتمثل في الحقيقة التاريخية)، مع العنصر الخيالي أو السرد المبتكر (المتمثل في المتخيل التاريخي)، وبالتالي "من خلال حواريتها لا يمكن أن تكون إعادة كتابة للتاريخ، وإنما هي أتون ينصهر فيه العنصر التاريخي مع عناصر أخرى تسهم جميعاً في بناء الكون التخيلي للرواية"⁴، وهذا من المهمات الصعبة بالنسبة للروائي، إذ يعتمد على رؤيته وبراعته في التعامل مع المكون التخيلي في كشف ما وراء الخطاب الرسمي، وإعادة إنتاج واختلاق الحقائق، ومنه فإن "وظيفة الروائي - كما يقول فورستر - إظهار الحياة الخفية بأصولها، أي أن يخبرنا عن الملكة فكتوريا، أكثر مما نعرفه عنها، وهو يفعل ذلك لبيتر شخصية ليست هي الملكة فكتوريا التي وردت في التاريخ"⁵.

ومن الحقائق والأنساق المسكوت عنها، التي أثارت اهتمام كتاب الرواية خاصة في الفترة الأخيرة؛ المثقف والسلطة، فهما من القضايا الجديرة بالاهتمام، التي تدخل ضمن الرؤية الحداثية في بعدها السياسي والاجتماعي، والتي تعبر عن صراع قوى متضادة، ومن المسائل المطروحة في السياسة الراهنة، إذ "لم تشهد الإنسانية في أية حقبة من تاريخها تراكمًا للسلطة، ونموًا لنظم العنف والاستبداد السياسي، كما تشهده منذ مطلع العصور الحديثة. وفي مطلع القرن العشرين بالذات"⁶.

إننا نجد حضوراً بارزاً للمثقف في الرواية التاريخية، وهذا الحضور يختلف من مثقف لآخر باختلاف مواقفه وأدواره، فهو يعيش في صدام دائم مع العالم بتعقيداته وصراعاته مع الحقيقة ومع المجتمع، وهذه المواقف تتمايز بحسب نماذج ووظيفة المثقفين "فمنهم من يصمد أمام الترغيب والترهيب... ويحدد علاقته بالسلطة في حدود ما يمكنه من التفاعل الإيجابي وأداء واجبه في مجتمعه وقد يظهر هذا التفاعل في صورة مشاركة في الحكم أحياناً وفي صورة النقد البناء أحياناً، ويتصف في كل الأحوال بالاعتدال وطول النفس، ومن المثقفين من يؤثر القيام بدوره الطليعي بعيداً عن "الحكم" حين يغلب الاقتناع بعدم جدوى التفاعل معه في ظل سيطرة "تسلط

الغلبة والقهر والفتن " فيضيء في موقعه ضمن اختصاصه، وهناك مثقفون يضعفون أمام الترهيب ويأسون بالزخرف، فيفرون بدورهم الطليعي ويجندون إمكاناتهم في خدمة "السلطان" "الغاشم" ...⁷.

لقد عانى المثقف العربي وما زال يعاني إلى يومنا هذا؛ التهميش وسلب لدوره من قبل السلطة الاستبدادية، وهو ما دفع به للتعبير عن ذلك الاضطهاد، تكريسا لمكانته المهمة الفاعلة في تعرية الواقع، فصارت " الكتابة هي السلاح الوحيد للمثقف للدفاع عن وطنه وفضح كل من يسعى إلى تدميره وخرابه كما اكتشف أن الكتابة هي السلاح الوحيد في هذه المعركة لتعرية الواجهة، نزع الأقنعة، فضح المسكوت عنه"⁸، هذا ما ينطبق على شخصية المثقف الذي مثلته رواية العلامة لبسالم حميش، ومن هنا نطرح الإشكالية التالية: ما مدى قدرة الإبداع الروائي التاريخي على تجسيد قضايا الراهن التي تؤرق المثقف العربي؟ وهل استطاع الخطاب الروائي إثارة صوت المثقف؟ وما هو الدور المستند إليه بصفته فردا واعيا وعضوا فاعلا في المجتمع والذي يحدد علاقته بالسلطة؟ ومنه ما هي الأنساق السلطوية التي تضمنتها رواية العلامة؟

1- المثقف والسلطة

لا يمكن إيجاد تعريف للمثقف إلا ونجده يرتبط ارتباطا وثيقا بالسلطة، السياسة، الحكم...، وهذا ناتج عن دوره الهام في الساحة السياسية وعلاقته بالقوى السلطوية داخل المجتمع، وبالتالي هو المساهم الوحيد في نقل الأفكار وتوجيه القيم وتأثيره على الرأي العام، وهنا تتحد علاقته بالسلطة فإما أن يكون جزءا من المنظومة السلطوية ذلك إذا رأى فيها وسيلة للتعاون والتغيير وتعزيز للقيم وفاعليتها، وإما بمعارضتها عندما يرى بأنها تتجاوز تلك القيم والمبادئ التي هي حجر أساس المجتمع.

يتحلى المثقف بمبادئ أساسها العدل والدفاع عن الحقوق باعتباره وسيطا بين الحاكم والمجتمع، إنه يعيش بكل أحاسيسه مع نبض المجتمع ويتفاعل مع همومه وقضاياها، ومناقشة احتجاجاته، وقراءة الواقع قراءة نقدية واقعية عميقة، فهو " لا يرضى بكل ما يحدث له ولمجتمعه، ويحاول أن يفكك المقولات والثوابت ويعيد تركيبها وفق رؤية واعية، فهو يتمتع بالعقل النقدي الذي يستخدمه في النظر إلى الأشياء والقضايا، والذي يمارسه سواء إزاء السلطة أو إزاء المجتمع أو المجموعة التي ينتمي إليها"⁹، فمن واجب المثقف التشجيع على التغيير والتجديد المستمر للتقاليد والقيم القديمة والمفاهيم والممارسات العقائدية المترسبة؛ لتتناسب والتحولت الثقافية والاجتماعية.

المثقف الحقيقي شخص صعب المنال من طرف السلطة، حيث لم يترك فرصة لها لممارسة الضغط عليه وتسييره أو طمس آراءه، متسما بالعدل والثورة على الظلم وإعلاء صوت الحق، يتحدث بشجاعة عن رأيه ضد سياسة القمع منددا بالظلم مستثمرا في مساءلتها وفضح انزياحاتها، وهو هدف محفوف بالتحديات. تحدي للمنظومة السلطوية. ومواجهة المخاطر كـ " تعريض أنفسهم لأخطار الحرق، أو النبذ أو الصلب، فهم شخصيات بارزة رمزية متميزة بابتعادها الراسخ عن الاهتمامات العملية. ولذلك لا يمكن أن يكونوا كثيري العدد، كما أن من غير الممكن تنميتهم روتينيا، عليهم أن يكونوا أفراد مدققين، وذوي شخصيات جبارة، وأهم من ذلك كله يجب أن يكونوا في حالة معارضة شبه دائمة للوضع الراهن"¹⁰، بالحرية الفكرية واستقلالية قراراتهم وروح الحراك التي يتمتعون بها مما جعلهم مصدر قلق للسلطة؛ التي تسعى " لتقييد حريته وتضييق الخناق، ومحاصرته في ممارسة مهامه، عن طريق فرض سياساتها التحفيزية لتضمن تبعيته، كاستخدام المكافآت والجوائز، أو سياسات

الضغط والتهديد ذلك إذا لم يلتزموا بقواعدها وقراراتها التي لم تعجب المثقف. وفي كل الأحوال لابد على المثقف أن يكون خبيراً ومحيطاً بمجاليه عن طريق المعرفة العميقة والتفاني فيه¹¹، لتحقيق حياديته وضمان مبادئه وتعزيز استقلاله ومكانته في مجتمعه.

ورغم الفراغ الناتج عن تهميش واستبعاد المثقف اليوم عن الحياة السياسية والعامة، ومحاولة إحباطه وتشكيكه في مكانته وتقليص دوره " لأسباب تكاد تكون انتقامية ووقائية، لن يكون من الممكن التقليل في المستقبل من وقع التحكم بالمعرفة والسيطرة على العلوم على الرأي العام بصورة خاصة"¹²، فدورهم يتزايد مع التزايد المستمر للتحويلات والتطورات رغم قلة هذه الفئة من المثقفين الحقيقيين، فالمجتمع اليوم هو في حاجة لهذه الفئة التي تحاول بكل ما بوسعها للحفاظ على مبادئها ودورها الحقيقي وتحقيق التغيير الإيجابي برؤية حضارية إنسانية رغم التحديات.

2. تمثيلات أنساق السلطة وردود أفعال المثقفين من خلال نص العلامة:

رواية العلامة. تندرج ضمن إطار الرواية التاريخية الحداثية. إذ تعد إشارة ذكية إلى الواقع السياسي العربي من خلال بحثها في عمق التاريخ برؤية نقدية ومنطق تحليلي للحياة العامة المرتبطة بالسلطة؛ وذلك من خلال عرض قضية المثقف وصراعاته مع السلطة، وهذا ما كشف عنه رجاء النقاش في في بداية الرواية حيث يقول: " تعالج رواية العلامة مشكلة الصراع بين المثقف والسلطة، وقد حقق كاتبها بنسالم حميش عملاً أشبه بقطعة موسيقية تتألف من لحنين: لحن تاريخي ولحن عصري. والرواية بذلك تخاطب عصرنا من خلال قناع شفاف من التاريخ"¹³، غنية بالرموز والدلالات التي تعكس واقع الحكام؛ بارتكازها على الهامش وتشخيص علل السلطان، وكشف عما يعانيه المثقف العربي من تهميش وعجز وحدود الإنتاج والإبداع في ظل سطوة الرقابة السلطوية، والخلافات التي تشوب علاقته بالسلطة، من خلال إسقاطات تاريخية على عصرنا، هذا المثقف الذي عبرت عنه بشخصية ابن خلدون رمز للمثقفين؛ بتصوير حياة السلطة التي عاشها في مصر بمختلف وقائعها السياسية والاجتماعية كالصراع والظلم، القمع، الرشوة، الاستبداد...، ولهذا سنحاول رصد هذه الأنماط الاستبدادية من خلال الرواية وردود أفعال المثقفين تجاه هذه السلطة.

1.2. رمزية عنوان "العلامة":

يشكل العنوان النص الخارجي والواجهة المختزلة لما يحتويه النص، وأيقونة ذات رمزية معقدة تحمل دلالات تجذب القارئ للدخول إلى النص وتفكيك مجهولاته وتأويله؛ للبحث عن مقصدية العمل الإبداعي، مما يعزز التفاعل المعرفي والجمالي بين الكاتب والقارئ، وأهم ميزة فيه. العنوان. أنه " يخفي أكثر مما يظهر، وأنه يسكت أكثر مما يصرح، ليعمل أفق المتلقي على استحضار الغائب أو المسكوت عنه أو الثاوي تحت العنوان"¹⁴.

وعنوان "العلامة"؛ يرتبط بشكل وثيق بالنص، فهو الشخصية الرئيسية في الرواية، فالعلامة هنا؛ مشتقة من كلمة عالم، وتعد من الصفات التي يلقب بها ابن خلدون؛ لتفوقه العلمي في عدة مجالات علمية ثقافية...، حتى صارت هذه الصفة ملازمة للاسم الشخصي " العلامة ابن خلدون"، ففي كثير من المواقف. من خلال الرواية. نجدها تحل محل اسمه؛ "لتفادي تكرار الاسم الشخصي، وهذا ما يفسر مراوحة الروائي في بعض الأحيان بين إيراد الاسم الشخصي للبطل والصفات التي تدل عليه"¹⁵، ويشير النص إلى ذلك من خلال قول الراوي: " وحين انتهينا قال العلامة: " هل يتسع عقلك يا حمو"¹⁶، وأيضا في قوله: " ابتهج العلامة بموافقة كاتبه"¹⁷، وفي موضع

آخر: " حيث جالس العلامة كاتبه "¹⁸... وغيرها من الأمثلة، وهنا يمكننا استخلاص علاقيتين توضح صلة العنوان بمتن الرواية

أولاً: يرتبط عنوان العلامة بشخصية تاريخية عالمية لها علاقة بالتاريخ والسلطة (ابن خلدون)، وقد اختاره الروائي لبسالم حميش لكونه شخصية متميزة بتجاربه الفريدة؛ التي تتوافق واقعياً مع السياق العربي، تعبر عنها فريال غزول في رواية العلامة بقولها: " شخصية تاريخية فذة بجوانبها الإنسانية الحميمية وفلسفتها في التاريخ والاجتماع وتفاعلها مع التصدعات الكبرى في عصرها "¹⁹، يشير العنوان إلى أن ابن خلدون يمثل معلماً مميزاً له أثره ومكانته في تاريخ الفكر السياسي والاجتماعي، وأثرهما على ابن خلدون، حيث تعمق في التجارب السياسية، كما نظر إلى التاريخ وعمق في تحليل الأحداث وربط الحقائق والسلطة والأهم بماضيها وتوقع مستقبلها، فضلاً عن فهمه لتغير المجتمعات وتطوراتها: نتيجة تأثرها بالسلطة، التي يرى أنها لا تشهد استقراراً نتيجة لذلك التأثير الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، والسبب الثاني هو العصبية، لذلك سعى العلامة إلى تغييرها وجعلها أكثر تقدماً. ثانياً: ويظهر عنوان العلامة دلالات متعددة مرتبطة بشخصية ابن خلدون، إذا يشير إلى الإنسان المثقف المشبع بالمعرفة والعلوم، وهو - مصطلح العلامة - عند ابن منظور من "بالغت في وصفه بالعلم" "²⁰، فهو " صيغة مبالغة من علم/علم به/علامة، كثير العلم، عالم كبير واسع العلم والمعرفة موسوعة علامة. علامة في التاريخ. يحترمه الناس جميعاً لأنه علامة "²¹، فابن خلدون يعد من كبار المثقفين، العالم المعروف بقيمته الفكرية والعلمية، لغزارة علمه وتفوقه في مختلف العلوم، يتميز بالفصاحة والفكر التحليلي والنقدي في فهم الظواهر، فهو يتحلى بمبادئ الحرية والمساواة وروح الجرأة في مواجهة التحديات، باعتباره مثقفاً فاعلاً حقيقياً لا يسكت عن قول الحق في وجه النظام الاستبدادي.

يحاول الروائي من خلال اختياره لعنوان " العلامة؛ إبراز مكانة ابن خلدون كمفكر ومثقف من خلال تناول تجاربه التي تتناغم في محتواها مع واقع العصر.

2.2. نسق الاستبداد والطغيان:

الاستبداد ظاهرة سلبية بكل ما يحمله من معاني الظلم والقهر، فهو أحد أسباب الفساد السياسي، وفي رواية العلامة؛ يسعى كاتبها إلى تعرية الاستبداد السلطوي وكشف تجارزه عبر وصف مجموعة من المشاهد عن أشكال الاستبداد السلطوي وفساد الأنظمة السياسية، والتي أخذت قسطاً كبيراً من الرواية، ويتجلى ذلك في وصف الظواهر الاجتماعية الناتجة عن استبداد السلطان، ففي الرواية يعبر ابن خلدون عن الصدمة الاجتماعية والسياسية نتيجة التغيرات التي طرأت على المجتمع المصري، فيكشف عن الجانب المظلم الخفي والمتناقض للقاهرة؛ التي في ظاهرها وعمرائها ذات جمال، لكن في الباطن متلونة بكل أشكال الظلم والفساد والتمايز بين مراكز السلطة وأصحاب المال والجاه، بينما الفقراء في الحضيض، يقول الراوي: " اكتشف المالكي الوجه الآخر للقاهرة، المدينة التي وصفها حين دخلها منذ أقل من عامين، بـ " حضرة الدنيا " و " بستان العالم " و " إيوان الإسلام "، ومثل بحر النيل فيها بنهر الجنة؛ اكتشف وجهها الآخر، أي الفساد مستشرياً في العادات والتقاليد، والغلبة كلها لذوي المال والسلطة، والحيث نازلاً على كواهل المعوزين وأهل الفاقة "²²، ويعرب عن استياءه وخيبته لحالة المجتمع وتدهور القيم، فالسلطين دائماً يجذبون أهل العلم والدين لأنفسهم ويستعبدونهم لكي يلبسوا ثوب الحق والعدل، وهذا ما عبر عنه باستحضاره مقطع من كتاب التعريف يقول فيه: "فقد كان البرّ منهم

مختلطا بالفاجر، والطيب متلبسا بالخبيث؛ والحكام ممسكون عن انتقادهم، متجاوزون عما يظهرون عليه من هئاتهم لما يوهمون به من الاعتصام بأهل الشوكة؛ فإن غالبيتهم مختلطون بالأمراء، معلّمون للقرآن، وأئمة في الصلوات، يلبسون عليهم بالعدالة، فيظنون بهم الخير، ويقسمون لهم الحظ من الجاه في تركيتهم عند القضاء، والتوسل؛ فأعضل داؤهم، وفشت المفاصد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم²³.

جعل ابن خلدون القاهرة. من خلال رواية العلامة. رمزا للسلطة الاستبدادية ورمزا للظلم المستشري خلف بلاطات الحكم، وخلف عمرانها وأثارها الجميلة، كسلب الحقوق والرشاوي وأساليب التحايل، فصار الإسلام غريبا في عصر تسوده الفتن "القاهرة، قيل للمغربي قبل وفوده إليها: من لم يرها لم يعرف عز الإسلام؛ وحين عاينها وقف عند هذا العز في عمرانها ومآثرها ورسومها؛ لكن ما إن نزل في بواطنها مكبا على شؤون العدل الذي هو أس الحكم حتى قاس اغتراب الإسلام بين أكبرها وأعيانها، فرثى لانقلاب القضاء إلى الأعياب احتيالية وصفقات دنوية، ورثى لانسحاق الحقوق وزهقها تحت أقلام الزور وبطون الحرام"²⁴.

وتتجلى مظاهر الاستبداد في الظلم، كأكل مال الضعفاء المهمشين، مثال ذلك ما حدث لشخصية شعبان الذي سُلِبَت منه حقوقه وأمواله التي أورثها له الفقيه سراج الدين الفيومي الشافعي قبل وفاته، يتحدث شعبان لابن خلدون قائلا: "و حين شعر بدنوِّ أجله ورثي بعقد أرضا في الصعيد من نصف فدان، هي ثلث ما كان يكسب. لكني لم أفلح أبدا بهذا الإرث للأسباب التي تكرر مشهدها عند سيدي في هذه البلاد"²⁵، وأردف ابن خلدون مبديا فهمه " خرج عليك الورثة من كل حذب وصوب، وطعنوا في صحة الوصية أو سلبوك إياها بدعم من قضاة الحيف والزور..."²⁶، فشخصية شعبان ترمز من خلال العلامة إلى الشعب المقهور والمضطهد من سياسة الظلم والاستبداد...

ومن صفات الاستبداد أيضا قول ابن خلدون: " اليوم أستخبر عما حولي وأرى الشواهد والقرائن، فلا استنتج إلا ازدياد النخر في جذور الأخلاق والآداب؛ والحضر على وجه العموم هم كما وصفتهم من قبل، بل و (يكثُر منهم الفسق والشر والفسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجه ومن غير وجه...)". إنني استنتج ما هو أدهى من هذا وأمر، لأنه مجمع العلل كلها والأسباب، استنتج النكوص والوهن متفشين في قوام الدول الحالية، هذه الدول التي صارت لا باع لها إلا في تسخير الناس بغير حق، وتصريف الأدميين طوع الرغبات والشهوات، وإرهاق التجار المعتمدين بالمغارم والمكوس الجائرة، وغير ذلك من آيات الظلم الذاهب بأسباب الرجاء، والانتشراح، المؤذن بخراب العمران، العائد بالوبال على دوائر السلطان"²⁷، يعبر عن استيائه وقلقه من تدهور الأوضاع في المجتمع وتدني مستوى الأخلاق والآداب وانتشار المفاصد والتحايل مقابل ضمان البقاء والعيش واللجوء إلى الغش والحيلة في تحقيق مصالحهم، كما يشير إلى حال الدول الإسلامية التي تجعل الناس تحت سلطتها، خدمة لمصالحها، وفرض الرسوم والضرائب على التجار، وغير ذلك من المظاهر الاستبدادية التي يرى بأنها سبب في انهيار الحضارة والعمران، ويشير إلى عواقب ذلك على السلطة الحاكمة، وهذه الظواهر لا تختلف عن السلطة في المغرب من فساد وظلم وتدني القيم والهجرة وغيرها من أشكال الفساد التي شملت كل فئات المجتمع، يتجلى هذا في قول ابن خلدون: " سألت الشاب عن اسمه وأحواله، فردّ علي بصوت هادئ شفاف. استفسرته عن فاس وأهلها، فعبر بكلمات مقتضبة عن تفشي الفساد فيها وقساوة العيش التي تدفع الشبان إلى الهجرة، والناس إلى

اصطناع كل فنون التحيل والشر. وعقب أن هذا المآل لا يستثنى حتى المتعلمين مثله، ولا أحد من أصحاب الحرف والصناعات.²⁸

يعبر أيضا عن استنكاره واستهجانته لسياسة الحكام من ظلم وطغيان وضعف الحكمة في تدبير شؤون الرعية بأسلوب ساخر، ويصفهم بأنهم صغار وخبرة في حوك المكائد والفتن، يقول: "كم هم صغار سلاطين هذا العهد ومبتئسون حتى في استبدادهم! كم هم ضعفاء في تدبير شؤون السياسة العامة والرعايا، ومهرة في حوك المؤامرات وبث الدسائس!"²⁹.

3.2. نسق الخضوع والرضوخ للسلطة:

"أصبح خضوع المثقف للسلطة وتبعيته لها من الموضوعات الشائعة جدا في العقود الثلاثة الماضية في الصحافة والكتابات السياسية عموما، وقد برزت أهمية هذه المسألة في الثمانينيات عندما بدا وكأن هناك حركية ديمقراطية في المجتمعات"³⁰، ووجود واقع تطغى فيه القوة السلطوية على الفكر والثقافة، حيث تؤثر على المثقف ومواقفه الفكرية وتعيق مساعيه، وبالتالي يتراجع عن مبادئه ويستسلم للظروف، ويتحول لمثقف تابع يساهم في صناعة توجهات السلطة، وتعزيز سياساتها مما يؤثر على فعاليته وكفاءة دوره في المجتمع، وتبرز تبعية المثقف في مواقف وسياقات مختلفة من نص العلامة:

يعتبر المؤرخ من بين الشخصيات المثقفة التي تناولها الرواية، ذات دراية وخبرة واسعة عميقة بالمعطيات التاريخية، وقدرة على التحليل والتدقيق، لكن في الغالب ما يكون المؤرخ مهددا من بعض السلطات السياسية القاهرة، وفي مواجهة الضغوط التي تقيد من حريته فتجبره على تحريف الحقائق، فيؤثر السكوت على أفعالها القمعية، فيتخلى عن استقلاله وحياديته طمعا في مآثر لسلطان، يسرد ابن خلدون على كاتبه قساوة الزمان وقساوة السلطة وأتباعها ممن تغرهم أهواء السلطة "سجل حياك الله أن حكيمي على المؤرخين ليس بالجملة أو على وجه الإطلاق، بل أخص به اللاصقين بركاب الدولة كالغراء، سماسرة الأخبار والإشاعات، عبدة رنين الدينار وأمكنة البذخ واللمعان، هؤلاء هم الذين أعني لأنهم يتبعون" بالريق الناشف "أسلاك القسر والإكراه، فيقتلون مواهبهم بالعمى والدوار، ويفقدون كل قدرة على معرفة الواقع أو لمس أحوال عباد الله والبلاد... قوى البلع والضغط كثيرة يا حمو، لكن من المؤرخين من يهاوها ويشجدها بدافع الجشع وملء الشكائر، ومنهم من يفر منها أو يسلك بين تضاربها مسلك الساهر على صحة روحه وعلمه"³¹.

وفي سياق الحديث عن خضوع المثقفين؛ حاولت الرواية تجسيد بعض صور المثقفين السلبيين، من خلال مجموعة من السلوكات؛ منها حالة التناقض الذي يعتري شخصية ابن خلدون، حيث أنه في بعض الأحيان تستهويه السلطة فتجعله في صراع بين استقلاله واستجابته لها، أي بين حرصه على إقامة أحكام الحق والعدل . بصفته قاضي المالكية . والميول والانحيازات التي يميل لها أحيانا، فيختار الرضوخ وممارسة الانحناء أمام سياساتها القمعية، مراعيًا مقتضيات الواقع، فيقر بذلك قائلا: "في السياسة وشواغلها، كثيرة كانت معاطي وزلاّتي. لا أعيب على نفسي أنني في مصطدم أهوائها وعقدها كنت ابن جيلي، ألعب مثله على حبال المتناقضات، وأتلون بألوان الظروف والملابسات، متقلبا بين حال وحال، متحالفا أو متنكرا بحسب ما يقتضيه المقام أو غريزة البقاء... فلا يبقى على من هو في موقفٍ إلا مهادنة الأحوال ومطاوعة الرياح، ملبيا أوامر أرباب الوقت"³²، فالرواية

تعطي من خلاله صورة أنموذج للمثقف السلطوي الذي يدعم ويعزز الاستبداد، فقد جرفته السياسة وملذاتها إلى مفاسدها فابتعد عن وظيفته الحقيقية.

هناك عبارة تقول: "من لا يملك قوته لا يملك قراره"، أي لا يملك استقلالية فكره وحرية قرارته، وهذا ينطبق على شخصية العلامة عند خوفه من عقاب السلطان، الذي يحدد مصيرهم، ويخشى أن تسلب وظيفته، فلا خيار له سوى الرضوخ لمناصب تعيينه التي ليس له يد في الفكك منها لكي يضمن مصالحه، حيث يستدل على ذلك بالقول: "إلا أن الجواب أتاني بظهير تعييني للمرة الثالثة قاضي المالكية بالقاهرة، ورأيت في هذا التكليف الجديد إرادة السلطان في إبقائي رهن إشارة الدولة وحاصلا في ظلها فلم يكن في وسعي غير الرضوخ"³³، وفي قوله أيضا: "إلا أن الرد أتاني مرة أخرى في شكل مرسوم جديد بتعييني قاضي المالكية: فقبلت الخطة مكرها، حتى لا أعاكس السلطان وأقطع أسباب الرجاء"³⁴، كما يصف حالة الهلع والترقب التي يعيشها المثقفين على اختلاف وظائفهم، التي يسعون للحفاظ عليها بشتى الوسائل والطرق، يقول: "كان المنتظرون مثلي يعرفون بسيماهم من كثرة التخمين والانقباض، منهم الأمراء ولا شك وأصحاب الوظائف العليا، ومنهم التجار والشعراء والمخبرون والقتلة. وكلهم عبيد الرتب والزلفى، يرعون مصالحهم بأيدي مرتعدة وقلوب خفاقة، طالبين لها المزيد، يخافون عليها كأنها بمنزلة أبصارهم وفلذات أكبادهم، ويخافون منها كأنها الوباء والشر بعينه"³⁵.

تظهر أيضا تبعيته. ابن خلدون. في صمته خضوعا وانصياعا لأمر الحاكم منطاش عندما أجبر العلماء والفقهاء على توقيع شهادة الزور وتزوير فتوى قتال برقوق دون حجج، وإلا فإنه معرض للنفي أو السجن، فما كان من ابن خلدون إلا الرضوخ خوفا من مواجهة المخاطر، حيث يقول: "سكتُ، لا لأن كلام الرجل أخرسني، بل لأنني قدرت مخاطر الرد عليه. كإصدار الأمر بحبسي أو نفي، ولما لا بقتلي... ثم تناول القلم من الدوادار ووقع على الأوراق خطه، ففعل مثله باقي القضاة وقضاة العسكر. فلم أملك، وقد أتت نوبتي إلا أن أضيف خطي إلى كل الخطوط، ملء حنجرتي غصة"³⁶، من خلاله أراد الروائي إعطاء صورة لزيغ المثقفين أو المثقف المزيف كما يسميه سارتر، الذي يعارض المواقف في داخله، لكنه لا يجزؤ على الرفض، عاجز عن قول "لا" في وجه السلطة القهرية" وبعبارة أخرى لا يقول المثقف المزيف "لا"، ولكن... أو "أعلم ذلك حق العلم ولكن ينبغي أيضا..." وما إلى ذلك"³⁷، ثم خوفه الآخر من رد فعل الحاكم برقوق بشأن التوقيع ضده، خوفا من انتزاع وظيفته، فقام بإرسال رسالة اعتذار له طلبا للعفو والحصول على رضا السلطان، لتجنب العقوبة وتحقيق المصالح" أما قصيدة الاعتذار إلى برقوق، فقد أمسيت أشتغل فيها ليلا، وأسهر من أجل صقل معانيها وترتيب قوافيها، فكانت أثقل على صدري من الرصاص، لما فيها من التكلف والتضرع"³⁸، أيضا إظهاره للولاء وطاعته للسلطان والامتثال لأوامره، والتصنع في سلوكياته من أجل الحفاظ على نفوذه ومكانته، عن طريق الامتثال بالدعاء للسلطان في الحج بينما لم يفعل، يقول: "أجبت به عبارات الشكر والارتياح، مبالغا في الامتنان له، هو الكافل الرزاق. الراعي المسيطر"³⁹، وبالقول: "غالبت إرهابي وتجردت للإجابة المصطنعة، قلت: قرت عينك، بين الصفا والمروة وعلى جبل عرفات، وفي الأماكن المقدسة والأوقات، دعوت لك بالنصر على من عاداك، وبالتمكين في مهامك ومجراك..."⁴⁰.

وفي موضع آخر يتجلى خضوعه، في محاولة كسب ود السلطان التتري تيمورلنك، المعروف بأساليبه الجائرة وقوته في الاحتلال، عن طريق اتحافه بالهدايا كنوع من الرشوة، قصد الاستفادة الشخصية المتمثلة في الحصول على الإعفاء للتحرر من سيطرته، والسماح له بالعودة إلى أهله في مصر قبل إتمام مهمته، إلى جانب عبارات المدح

.تمجيد عظمته وقوته. في شخص تيمور، يقول في هذا الشأن: "ارتأى الباحث عن الفكاك من ظل تيمور أن يمهّد للكلام الرقيق الدقيق بإتحاف الخان ببعض الهدايا الرمزية المؤثرة، كانت نسخة من مصحف فاخر، وسجادة بهية رائعة، ونموذجاً من قصيدة البردة للبوصيري الصنهاجي وبعض حلاوة مصر المشهورة"⁴¹، وهذا ما يدعم النظام السلطوي عندما يكون المثقف تابع خاضع مما يؤثر على حياديته، وتراجع نزاهته وفعاليته النقدية، وبالتالي تنعدم مصداقيته وتضعف إمكانية إحداث التغيير.

في السياق نفسه. الخضوع. تظهر شخصية ابن النعمان كاتب تيمور، وهي شخصية مثقفة سلبية متخصصة أو الخصوصي بحسب فوكو؛ خاضعة متعبدة لمنصبتها "عبيد الرتب" كما يسميهم ابن خلدون، محصوراً في دائرة مهنته، رغم معرفته بكل ممارسات تيمور إلا أنه يمتن ثقافة النسخ والنقل، وهذا ما يبرز التأثير السلبي على قيم المثقفين وتأثيرهم الحقيقي، وإطفاء إشعاعهم الثقافي، فيتحول من مثقف يكتب فكر إلى مجرد آلة ناقلة تتبع مسلك السمع والطاعة، فيتحول. المثقف. إلى كبسة زر في يد السلطة تديره وفق مشيئتها، ف"في إطار الحياة الاجتماعية، يعتبر نظام القيم الذي تفرضه السلطة أن مسؤولية المثقف هي خدمة مصالحها، أن يدون. مظهر الارتياح. الأفعال الفظيعة (الحقيقية أو المزعومة) للأعداء المعنيين، وأن يحجب أو يحمل الجرائم التي ترتكبها الدولة وعملائها، استحق المثقفون الروس الذين تولوا هذه المسؤوليات الثناء والتكريم في بلدهم، أما أولئك الذين رفضوا هذه المطالب [حجب أو تجميل الواقع]. فقد عوملوا، كما تعلم، بصورة مختلفة تماماً"⁴².

لتأتي شخصية شعبان وهي شخصية مثقفة مهمشة، أفرد لها النص مساحة كبيرة، للتعبير عن دواخلها واضطهادها من السياسة القاهرة، يعيش الكبت والاضطهاد "إلا أن خادمه السكيت"⁴³، وأيضاً "وأما خادمه الصموت"⁴⁴، فهو نموذج للمثقفين المضطهدين، كما هو رمز لخضوع الشعب (السكيت)، الذي يعيش تحت الظلم والفقر والقهر غير قادر على مواجهة الحق، العاجز عن التغيير، فكما يقول نزار قباني "ما قيمة الشعب الذي ليس له لسان؟"⁴⁵، فيصف شعبان عجزه قائلاً: "كما لا أكنتم سيدياًني رأيت فيما يرى النائم أني أتحوّل تارة إلى عنبرة أو سيف بن ذي يزن، وتارة أخرى إلى عمر ابن الخطاب سيف الله المسلول، فأهجم على المناكر والخروقات وأردمها قتيلة، أو أستعدي عليها كل مغلوب وكل مقهور. وحين استفيق أجد يدي تكيل الضرب المبرح للحافي ومخديتي، فأبكي بشدة لضعفي وعجزتي"⁴⁶.

ورغم ذلك؛ يبدو شعبان شخصية تعكس القيم الأخلاقية، شخصية مقاومة ثائرة لأنها ترفض الظلم. وإن كان رفضاً داخلياً. إنه صوت المظلومين والفقراء، فهو ينتقد النظام الفاسد والاستبداد لما تلقاه من ظلم واستلاب في حقه.

4.2. نسق المقاومة والرفض:

وكما ذكرنا سابقاً في حديثنا عن الدور الحقيقي المرتبط بالنشاط الفعال للمثقفين؛ حاول لبسالم حميش تجسيد هذا الدور المقاوم لدى المثقف، عبر استعراض مجموعة مواقف لمثقفين ممن يواجهون تحديات وعقبات وصراعات، تستوجب الرفض والمقاومة من خلال عدد من الأنساق:

1.4.2. نسق الالتزام الأخلاقي:

من المواقف التي تعبر عن التزام ابن خلدون . بصفته قاضي المالكية . تحليله بالعدل والمساواة، والتمسك بمبادئ الحق بما يرضاه الدين وخاصة في الأوقات الصعبة، التي تستدعي الشجاعة والصمود، حيث يشير الروائي إلى هذا من خلال قوله: "كان الرجل في تلك الحلقة العصبية يقف بين حدين قاطعين: حدّ أحكام الله وواجب تطبيقها بما يرضاه الشرع والمذهب، ثم حد السلطة الزمنية المتعبدية بمواقعها ومصالحها المخصصة. والحدان كالضدين لا يلتقيان إلا في مصطدم التنافر والتنافي. فكان على الواقف أمامهما أن يختار أقربهما إلى روحه وكيانه، متحملاً كل التبعات والعواقب. وهكذا اختار المغربي الحد الأول، المطلق والأسمى، فانحاز له وانتصر، معولاً على الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وبيده الأوراق كلها والمفاتيح"⁴⁷، مما يعزز قيمة العدالة وروح المسؤولية عند ابن خلدون الذي يعترف بهذا بوضوح قائلاً: "فقمتم بما دفع إليّ من ذلك المقام المحمود، ووفيت جهدي بما أمني عليه من أحكام الله، لا تأخذني في الحق لومة، ولا يزعمني عنه جاهٌ ولا سطوة، مسوياً في ذلك بين الخصمين، أخذاً بحقّ الضعيف من المحتكمين، معرضاً عن الشفاعات والوسائل من الجانبين، جانحاً إلى التشبث في سماع البيّنات، والنظر في عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات..."⁴⁸، يشير المقطع إلى مدى استقلاليتها في اتخاذ قراراته وإلى شجاعته ونزاهته في إقامة الحق مع حرصه الشديد على مراعاة حقوق المستضعفين بناءً على أحكام الله، فهو لا يضعف أمام الضغوط أو الانتقادات، مهما كانت المكانة أو النفوذ، ويضيف بالقول: "وبدا لي هذا الطريق في التشبث باتباع الحق، ورفض الكيل بمكيالين، والإعراض عن الوصايا والشفاعات في معالجة القضايا والشكاوى"⁴⁹، "ويعبر هذا الموقف بالدرجة الأولى عن التزام أخلاقي، فهو يقوم على تحدي الظروف الموضوعية وتجاوزها ويقتضي التضحية في سبيل المبادئ"⁵⁰.

فشخصية ابن خلدون شخصية صامدة قوية، صراعها المستمر لآخر نفس لإقامة العدل والصمود أمام تصدع الحكم وتفشي الفساد والظلم والاستبداد ومجاهدة السلاطين بحكمته، فهو لا يتغاضى عن قول الحق، فقد قيل "أن المالكي لا يتعامى ولا يطول باله". كان عليه أن يلبس جبة من صنع أصحاب السيف والقلم الجدد، ويقبل رشى محميهم من ملاك المواشي والحرث والعقار؛ كان عليه، لكي يكون عند حسن ظن أهل السلطة والجاه والمال، أن يكيف أحكام الله مع شهواتهم ومنافعهم الصرفة... لا وألف لا، قالها العلامة في وجه الحاجب أقباي المؤدلب ضده حتى النخاع. وأضاف "والذي نفسي بيديه لن يثني عن القضاء بالحق سلطان ولو كبر سطوه"⁵¹، القول يعبر عن تحدي وعدم استلام المالكي للسلطة واغراءاتها، ومدى التشدد والاندفاع في وجه المفسدين، ويرفض التعاطي مع مفسدها، وأنه سيظل متشبثاً بقيم النزاهة والحق مهما كان حجم الصعوبات.

الأمر الثاني؛ يتمثل في عدم الخوف من العقوبات، ويتضح من خلال ردود أفعال شخصيات ترفض الانصياع لتهديدات الأنظمة القمعية، وعلى رأسها ابن خلدون، فقد "كان من طبع الرجل الصبر والتحدي في الوقوف ضد رياح المكار والمكدرات الهوجاء، حتى يصيح بالحق ولو تعرض للعزل واللائمة"⁵²، فقد تعرض للعزل والسجن لمرات عديدة وخاصة لما تلقاه من اضطهاد من السلطان فرج، والأمر نفسه حدث مع شخصية شديد الدين الأُرذلي، الذي ألقى الطاغية تيمور القبض عليه لأنه عارض التهديدات التيمورية، وعلى الرغم من ما تلقاه من قمع وظلم؛ إلا أنه لم يستسلم، وبقي صامداً شجاعاً لا يبالي بالعقوبة، همه الوحيد الدفاع عن كرامته وكرامة من هم في مثل حالاته وظروفه، ويظهر هذا في القول: "حين وقف الطاغية مدعماً رجله الناقصة بصندوق ذهبي، حدى الجمع بنظرات فاحصة ثابتة، ثم نعت من خلفهم رجلاً متلبساً بعمود، فصوّت نحوه بم يفهم منه النهر

والأمر. قال الترجمان وقد التحق بمقام الأمير: "مولاي يأمر المتخفي بأن يأكل"، فصاح المأمور صيحة اهتزت لها أركان الخيمة، وأتبعها برد صახب: "قل له ما أنا بأكل". انتبه الجمع مدهوشين وراء، فإذا بالرجل هو شيخ الفقراء بوجهه البدائي، وعينيه الحمئتين، وهزله الخرافي. ثم صار يعارض التهديدات التيمورية بالإنشاد: [ولست أبالي حين أقتل مسلما/ على أي جنب كان لله مصرعي]. وأيقن الجمع أن الشيخ لا محالة هالك، غير أن الطاغية سرعان ما هدأ غضبه...⁵³، وفي مثال آخر يقول: "شيخكم الفقير هذا تركته وحاله، وأخلت سبيله. فله اللغو كله والهذيان. هل علمتم لم أجنب المعدمين عقابي؟ لأن خيط تعلقه بالحياة أضعف من خيط العنكبوت، لأن حب البقاء ليس لهم منه ذرة"⁵⁴، يعكس هذين المقطعين قيم العدالة، وأيضا محاولة لإعطاء صورة عن المثقف الاستقلالي، الذي يمثل صوت الحق في التعبير عن قراراته وأفكاره النقدية بشكل صريح دون خوف، الموقف نفسه مع ابن مفلح حين "ألقى المغول عليه القبض لما احتج أمام أميرهم على شططه في جباية الأهالي وتعرض أناس القلعة المستسلمين للنهب والقتل"⁵⁵، فكل هذه سلوكات تعكس الموقف الراض للواقع السياسي والسعي لتحقيق التغيير.

2.4.2. نسق النقد السياسي (نقد سياسات السلطة):

ويتمثل في نقد آليات الهيمنة والفساد، ويتجلى هذا في استنكار ابن خلدون بالسلطة التي تجعل من الدين وسيلة لتحقيق مصالحها وتكييفه وفق رغباتها، وهي انتهاكات تتعارض مع تعاليم الإسلام، ويتجلى هذا في قوله: "أن الإسلام الحق لا يلحقه إلا الأذى من الزج به بين كراسي الحكم ومطابخ السلطة أو في السياسات المحترفة، التي هي مصطدم الإرادات والأهواء والشهوات المتعارضة المتناقضة المتنافرة"⁵⁶، كما ينتقد ابن خلدون النظام الاستبدادي، فيشخص جملة من السلبيات والسلوكات التي تعاب بها السلطة الاستبدادية، كالاستناد إلى القرابة والمرتقة والموالي، والتحالف مع الهرمين والفاستدين، وتفضيل أصحاب المصالح المتملقين على ذوي الكفاءة في التعيينات، يقول: "شاخص في عيوب أذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر: وازع القرابة والدم في الظفر بالملك عيب؛ اصطناع المرتقة والموالي في إدارة دفة الحكم عيب؛ الاستبداد موقفا كان أو بائسا عيب؛ التعويل في الحكم على الهرمين والفاستدين ممن طبختهم سياسة العسف السائدة عيب؛ تفضيل المتزلفين على الأكفاء المضطلعين في الدواوين عيب؛ البذخ في محيط من العراء والفر عيب... إلى غير ذلك مما لامناص من قطع دابره وهجره من دون رجعة"⁵⁷، فالمثقف الفعال يسعى دائما للبحث عن الحقائق المظلمة بنقدها، والعمل على توجيه وعي الجماهير لسياسات الاستبداد، بما في ذلك انتقاده لنفسه.

3.4.2. نسق نقد الذات: وهي من صفات المثقف الحقيقي أو النقدي المتطلع للتغيير، برصد أخطائه والسعي لإصلاحها، فابن خلدون يعترف بأخطائه، وينتقد بعض أفعاله التي أوقعته فيها سياسة العصر وبهاجرها، يصرح "ففي باب المثالب، الذي أخصص الإماء فيه، كم تركت العاطفة تتلف عقلي، وتعني بصيرتي أمام الواقع. هكذا، مثلا، أطنبت في الدفاع عن خلفاء عباسيين ضد تهم تعايطي الخمر والتهتك والفسق، وكان الأخرى بي أن أسكت أو أفوض الحكم إلى الله الأعلم، لاسيما أني في النظرية أعتبر تلك الزلات وليدة كل حضارة مترفة باذخة..."⁵⁸، وفي سياق آخر ينتقد نفسه كمؤرخ، إذ يقول: "فكنت في هذا الموضوع المخصوص أقف مع المتغلب الأقوى، فأحصر التاريخ في الأخبار عما يكتبه منطق الغلبة والقوة، وأبقي خارجه جماهير المغلوبين ومن لا تعضدهم عصبية"⁵⁹، كما يتحدث أيضا عن طمعه في المناصب وهفواته التي قادتته إليها نفسه "بميلها إلى استهواء السلطة المملوذة،

والطمع في المناصب الرفيعة، التي رأيت من هم من دوني معرفة وكفاءة يبلغونها بالتسلط والزلفى وإحسان فنون الدسائس والسعاعات...⁶⁰، ويضيف "وهكذا استسهلت وأنا في بلاط أبي عنان، التفاهم مع ضيفه المعتقل أبي عبد الله أمير بجاية المخلوع على أن أيسر له فراره إلى إمارته وأقبل حجابته... قبلت بالصفقة السرية بسبب ما كان بين أسرتي وسلف ذلك الأمير الحفصيين من عروق الودّ والتراحم. لكن سرعان ما انكشف أمري وانفضح، فألقاني المريني في غيابة سجنه على نحواً من سنتين⁶¹، وغيرها من الاعترافات والتصريحات الدالة على مدى صدق الشخصية، فهي ليست دليل على ضعف المثقف، بل نرى بأنها رمز للشجاعة وقمة النضج الفكري لديه، كما هي دعوة للمثقفين بتشجيعهم على تبني ثقافة النقد وتجنب الوقوف في هكذا مواقف، وأن هذا الاعتراف لا يفقده مكانته بل على العكس من ذلك، فقد يزيد من ثقة الجمهور فيه.

4.4.2. نسق رفض الفساد الاجتماعي:

من خلال رفض المناكر ودفع الفساد الأخلاقي ومختلف الآفات الاجتماعية" فالمثقفون الحقيقيون لا يكونون أبداً في أفضل حالاتهم النفسية إلا عندما تحركهم عاطفة ميتافيزيقية ومبادئ الحق والعدل النزهة، فيشجبون الفساد ويدافعون عن الضعيف، ويتحدون السلطة المعيوية أو القمعية⁶²، ومن المواقف الدالة على ذلك رفض الاستغلال، يقول ابن خلدون محذراً: "حذار ثم حذار من حلب الرعية المستضعفة واستكثار المكوس على أهل الحرف والحرث. حذار من تئيس النفوس وإرغام أيدي الاعتماد على الانقباض والكف...⁶³، يُظهر المقطع رفض ابن خلدون استغلال الفئات المستضعفة، والطبقات المهمشة، وفرض رسوم وتكاليف تفوق قدرتها، واستنزاف أموالهم بطريقة جائرة تؤدي إلى تراجع ظروف أيدي الاعتماد (اليد العاملة).

كذلك رفض شراء المناصب (الرشوة)، ويظهر من خلال موقف ابن خلدون الرفض، ف "بعد أن توفي قاضي المالكية ابن التنسي السالف الذكر، عيّن برقوق خلفاً له ابن خلدون، فبرّ بوعده وطبع التفاتته هاته بكثير من الحفاوة والثناء. ضداً على المشغبين والنامامين؛ كما رفض عرض شراء المنصب بسبعين ألف دينار من طرف القاضي ابن الدماميني"⁶⁴، وكذا في التعبير عن تدمره عندما طُلب منه مكافأة مالية مقابل اخراج صهره من المستشفى،

"ليس الدخول كالخروج يا حاج !

. ماذا تقصد؟ أديتُ مصاريف إقامته وزيادة، هل ستمنع عليّ تخليصه من تلقي الموت بالتقصيـط؟

. مهلاً يا حاج. خروجه ممكن... لكن بكفالة مالية وأخرى معنوية توقعها بالقلم الغليظ...

أسرّجت نحو بيتي كاظماً غيضي، الرشا والبراطيل في الدخول وفي الخروج وأينما ولّيت وجهك! تباً لكل نظام لا يحيا إلاّ بها⁶⁵.

الموقف الآخر يتمثل في رفض التمييز والمفاضلة بين الأشخاص، وتمثله شخصية شديد الدين الأرذي المعروف . من خلال الرواية . بشيخ الفقراء، الذي يدافع عن المغلوبين والمهمشين، ويرفض التمييز بين الفقراء وأصحاب الجاه، ويتجلى ذلك في القول: "القلعة لا تتسع لكل الخلق... تيمور لا حاجة له بالمعدمين بل بالمترفين وأصحاب الجاه. وهؤلاء هم أذن من يجب درء الشرور عنهم.

عند سماع هذا التعليل، قام شيخ الفقراء، واسمه شديد الدين الأرذي، وصاح صيحة اهتزت لها أركان المدرسة:

. لا تفاضل بين الأرواح بمتاع الدنيا، يا عديم التقوى⁶⁶ وهذا ما يعزز من قيم العدالة، والسهر على حماية وخدمة الإنسانية.

وفي سياق آخر؛ رفض الإخلال بالمبادئ الدينية، واحترام تعاليمها حيث يرفض ابن خلدون الترخيص بشرب الخمر للجند من أجل التخفيف من الملل؛ فيرد ابن خلدون على يشبك مبدياً رفضه "تسألني يا يشبك رأيي بصريح المضمون والعبارة. لو تذكرت أنني عُرِيت عن القضاء بدعوى التشدد في الحكم والمعاقبة لتوقعت فتواي من تلقاء نفسك. أما رخص بعض الفقهاء للجند بالسكر بدعوى المصلحة الوقتية، فهي باطلة شرعاً من جهة الأثر وبما يقاس عليها من رخص بالزنا والربا وكل الفواحش الأخرى؛ وهي باطلة أيضاً من جهة العقل وتأييده للوعي واليقظة ضد السكر والسهو"⁶⁷.

5.4.2. نسق الحكمة في تشخيص العلل وإيجاد الحلول:

ولمعالجة هذه الظواهر. كالتي سبق ذكرها؛ لابد أن يكون المثقف مدركاً لدوره ساعياً للتغيير وتحسين الواقع لأن " معرفته (الواقع) فرض عين على كل مصالح ومدبر"⁶⁸، لا يكتفي بالنقد وتبيان العلل؛ بل أيضاً باستيعاب أسبابها وتبعاتها، وتقديم الحلول الفعالة اللازمة لتوجيه المجتمع نحو الأفضل، فنجد ابن خلدون يفكر في الأمور بعمق وحكمة، في تشخيص القضايا المعقدة، فيسعى للبحث عن بديل للعصبية السائدة من خلال قوله: "أما خيط البديل الأرفع، فإني أمسك ببعضه وليس بكل تلابيه، وأدرك منه نتفا وليس منظومته وتشاعبيه. والمعوّل على الله في رفع الغمة عني حتى أعمق فكري فيما أمسكه وأدركه حول أمة الشورى والحلّ والعقد، حول دولة العدل والقسطاس المستقيم، حول وازع الأخلاق في مجمل السلوك والتعامل؛ وكلها مفاهيم لا بدّ من تأصيلها حتى لو كانت لترشيد بلاء ضروري كالسلطان العصباني وتطويقه بها مؤسسة بحيث لا يتجر ولا يزيغ"⁶⁹، يشدد في هذا المقطع على ضرورة التمسك بمفاهيم العدل والعلم والأخلاق والديمقراطية... وغيرها، وكلها قيم لا بد من ترسيخها، والتي هي بمثابة ضوابط تحكم انحرافات السلطة، كما يحث المثقفين من العلماء أو كما قيل بـ "أهل الحل والعقد"، على ضرورة التواضع ومواصلة العلم وتحقيق المعرفة، يقول: "العلماء ورثة الأنبياء، لكن بشرط أن يتواضعوا لله، ويتركوا أبواب الاجتهاد مفتوحة لأنوار الحق وإضافات الخلف من محبي الغوص والحكمة"⁷⁰.

فابن خلدون هنا؛ نموذج للمثقف المصلح الساعي لحل الأزمات، والمثقف المتفاعل الذي يشارك هموم الشعب وخدمة المجتمع على حق، ويظهر في مشاركته وأصحابه القضية لإيجاد حلول للتصدي ومواجهة الحس المغولي، بنصح السلطان برقوق على ضرورة التماسك و"تقوية الجبهة الداخلية... بالعدل الذي هو قوام الملك، لأن الرشى والبراطيل تفسد الأخلاق والقواعد، لأن الظلم مؤذن بخراب العمران، لأن الرعايا إن أنصفهم راعهم وكرّمهم استرحمهم وتطايبت قلوبهم على محبته وقتال أعدائه"⁷¹، وأيضاً محاولة الإحاطة بتاريخ المغول عن طريق قراءة الكتب للبحث عن حلول التغلب على التتري، فيحاول الروائي هنا؛ أن يعطي صورة للمثقف الذي لا يخضع ولا يخون، الثابت على مبدأ مواصلة التغيير، وخاصة في الفترات الصعبة. الاجتياح التتري. ومواصلة الصمود في الوقت الذي فرّ فيه السلطان فرج وحاشيته خوفاً من المواجهة والهزيمة.

كما يُظهر النص عدم استسلام ابن خلدون في البحث عن جواب مقنع لأسباب تدهور الحضارة، عن طريق طرح الأسئلة العميقة والبحث عن حلول للتحديات" واليوم وقد بلغت من العمر أطواراً، أراني لا أبرح ذلك

السؤال ولا أغلقه بما قلت وحبرت في باب تعطل العبرة تحت توتر العسف الجبائي وتسלט السلطان والوزراء، أو عموماً بفساد إنسانية الإنسان⁷².

وفي نفس السياق؛ نجد شخصية صهره سعد الذي يرمز للمجتمع أو الشباب الذي تدفع به الظروف القاسية للهجرة وتدني الأخلاق، فيحاول ابن خلدون تغيير حاله وضبط سلوكاته بقوله: "كنت أعتقد أن تقويم اعوجاجه سهل عليّ، أنا الذي عاشرت جبابرة الأعراب وأجلافهم، وتوفقت أحياناً في استمالتهم؛ لكن الأمر يبدو لي الآن أعقد وأعوض. فالشباب مهزوز الكيان، مريض، ما في هذا من شك. ولا أرى الوعظ والنصح ينفعان فيه أكثر من وضعه بين أيدي الأطباء العارفين بأحوال النفس المختلة الأمانة بالسوء... الجرم كل الجرم أن أطفئ فيه هذه البقية من النور الثاوية في حنايا كل إنسان بما هو إنسان. هذه البقية لابدّ بالأحرى من تزنيدها ورعايتها بالنظرة الودودة والكلمة الطيبة، عساها أن تينع وتكبر"⁷³.

3. خاتمة:

مما تقدم يمكن القول:

تمكنت الرواية التاريخية من تقديم رؤية عميقة للحقائق والأحداث الماضية، بالتركيز على مختلف المسائل المعقدة منها: المثقف والسلطة، كداليتين تجسدان مختلف التوترات والتحويلات السياسية والاجتماعية وانعكاساتها على مصائر الأفراد وتطورات المجتمع، ضمن سياق روائي تتفاعل فيه الحقيقة مع الخيال. يتناول نص العلامة قضايا الاستبداد السلطوي كالظلم والسيطرة، الاستغلال، القمع...، وطرق تفاعل المثقف مع هذه التحديات، إما أن يخضع للاستبداد فيفقد دوره المؤثر، وإما أن يتمسك باستقلاليته فيختار الرفض والمواجهة.

الرواية (العلامة) تجربة عميقة ومعاينة دقيقة تكشف مختلف القيم والأبعاد الإنسانية كالعدالة، المساواة، الأخلاق، المقاومة، المواجهة، النضال، النزاهة...

تصور الرواية استبداد السلطان على أنه سبب في المشكلات والظواهر والانتهاكات التي تؤدي إلى تدهور الحضارات وتردي قيم وأوضاع المجتمع كالرشاوي، التمييز...، والمثقف كمنقيض للسلطة يسعى دوماً لتطبيق ثقافته وخبراته في البحث عن علاج لهذه القضايا مع التركيز على حقوق الأفراد.

يكمن دور المثقف كعنصر حيوي، في مساءلة الممارسات السلطوية، والعمل على نشر الوعي وإرساء دعائم العدل والأمل في الحرية بدفع المجتمع نحو الأحسن وضمان مستقبل الأمة.

الهوامش والإحالات:

¹ - محمد القاضي: الرواية والتاريخ، دراسات في التخيل المرجعي، دار المعرفة للنشر والتوزيع، تونس، ط 1، 2008، ص: 82.

² - نضال الشمالي: الرواية والتاريخ، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط 1، 2006، ص: 112.

³ - أمانة بلعلي: الرواية الجزائرية بين تخيل التاريخ وتأويله، أبحاث الباحة الأدبي الخامس، 1433 هـ، ص: 257.

⁴ - محمد القاضي: الرواية والتاريخ، ص: 38.

⁵ - فورستر: أركان الرواية، تر: موسال قاضي، جروسيرس، لبنان، ط 1، 1994، ص: 38.

⁶ - برهان غليون: المحنة العربية (الدولة ضد الأمة)، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط 2، 1994، ص: 07.

⁷ أحمد صديقي الدجاني وآخرون: المثقف العربي همومه وعطاؤه، مركز دراسات الوحدة العربية، مؤسسة عبد الحميد شومان، ط1، بيروت، لبنان، كانون الأول، ديسمبر، 1995، ص: 24.

⁸ بشير مفتي: المراسيم والجنائز، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1998، ص: 86.

⁹ هويدا صالح: صورة المثقف في الرواية الجديدة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013، ص: 65. 66.

¹⁰ إدوارد سعيد: صور المثقف، تر: غسان غصن، دار النهار للنشر، بيروت، 1996، ص: 24.

¹¹ ينظر إدوارد سعيد: الألهة التي تفشل دائما، تر: حسام الدين خضور، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان 2003، ص: 91.

¹² أحمد صديقي الدجاني وآخرون: المثقف العربي همومه وعطاؤه، ص: 113.

¹³ بنمسالم حميش: العلامة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، آفاق عربية (59) (شهرية)، نوفمبر 2002، ص: 5.

¹⁴ بسام موسى قطوس: سيمياء العنوان، المكتبة الوطنية، بدعم من وزارة الثقافة، ط1، 2001، ص: 50.

¹⁵ حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء. الزمن. الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط1، 1990، ص: 214، نقلا عن

146. : 12, p" in revue poétique ? n. une description » ' est ce qu' Hamon philippe 1972 « Qu

¹⁶ بنمسالم حميش: رواية العلامة، ص: 31.

¹⁷ المصدر نفسه، ص: 32.

¹⁸ المصدر نفسه، ص: 56.

¹⁹ المصدر نفسه، ص: 05.

²⁰ ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، مجلد 12، دت، ص: 417.

²¹ معنى علامة في المعاجم والأنطولوجيا، على الرابط:

<https://ontology.birzeit.edu/term/%D8%B9%D9%84%D8%A7%D9%85%D8%A9>

²² بنمسالم حميش: رواية العلامة، ص: 10.

²³ المصدر نفسه: ص: 11.

²⁴ المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

²⁵ المصدر نفسه: ص: 15.

²⁶ المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

²⁷ المصدر نفسه: ص: 58. 59.

²⁸ المصدر نفسه: ص: 131.

²⁹ المصدر نفسه: ص: 59.

³⁰ أحمد صديقي الدجاني وآخرون: المثقف العربي همومه وعطاؤه، ص: 102.

³¹ بنمسالم حميش: رواية العلامة، ص: 55. 54.

³² المصدر نفسه: ص: 43.

³³ المصدر نفسه: ص: 271.

³⁴ المصدر نفسه: ص: 273.

³⁵ المصدر نفسه: ص: 117.

³⁶ المصدر نفسه: ص: 166.

³⁷ جان بول سارتر: دفاع عن المثقفين، ص: 44.

³⁸ بنمسالم حميش: رواية العلامة، ص: 170.

- ³⁹.المصدر نفسه: ص: 119.
- ⁴⁰.المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
- ⁴¹.المصدر نفسه: ص: 262.
- ⁴².نعوم تشومسكي: قوى وآفاق تأملات في الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي، تر: ياسين الحاج صالح، دار العطاء للنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، ط 1، 1998، ص: 129.
- ⁴³.بنسالم حميش: رواية العلامة: ص: 12.
- ⁴⁴.المصدر نفسه: ص: 13.
- ⁴⁵.نزار قباني: هوامش على دفتر النكسة، د ط، د ت ، النسخة موجودة على موقع: nour.book.com
- ⁴⁶.بنسالم حميش: رواية العلامة: ص: 16.
- ⁴⁷.المصدر نفسه: ص: 11.10.
- ⁴⁸.المصدر نفسه: ص: 10.
- ⁴⁹.المصدر نفسه: ص: 271.
- ⁵⁰.أحمد صديقي الدجاني وآخرون: المثقف العربي همومه وعطاؤه، ص: 103.
- ⁵¹.بنسالم حميش: رواية العلامة، ص: 208.
- ⁵².المصدر نفسه: "ص: 12.
- ⁵³.المصدر نفسه: ص: 251.250.
- ⁵⁴.المصدر نفسه: ص: 251.
- ⁵⁵.المصدر نفسه: ص: 256.
- ⁵⁶.المصدر نفسه: ص ص: 65.64.
- ⁵⁷.المصدر نفسه: ص: 73.
- ⁵⁸.المصدر نفسه: ص: 41.
- ⁵⁹.المصدر نفسه: ص: 42.
- ⁶⁰.المصدر نفسه: ص: 44.43.
- ⁶¹.المصدر نفسه: ص: 44.
- ⁶².إدوارد سعيد: صور المثقف، ص: 23.
- ⁶³.بنسالم حميش: رواية العلامة، ص: 198.
- ⁶⁴.المصدر نفسه، ص: 204.203.
- ⁶⁵.المصدر نفسه: ص: 145.
- ⁶⁶.المصدر نفسه: ص: 245.
- ⁶⁷.المصدر نفسه: ص: 219.
- ⁶⁸.المصدر نفسه: ص: 67.
- ⁶⁹.المصدر نفسه: ص: 73.
- ⁷⁰.المصدر نفسه: ص: 127.
- ⁷¹.المصدر نفسه: ص: 198.
- ⁷².المصدر نفسه: ص: 69.

⁷³ المصدر نفسه: ص: 130.131.

قائمة المصادر والمراجع

- 1- أحمد صديقي الدجاني وآخرون: المثقف العربي همومه وعطاؤه، مركز دراسات الوحدة العربية، مؤسسة عبد الحميد شومان، ط1، بيروت، لبنان، كانون الأول، ديسمبر، 1995.
- 2- إدوارد سعيد: صور المثقف، تر: غسان غصن، دار النهار للنشر، بيروت، 1996.
- 3- إدوارد سعيد: الآلهة التي تفشل دائما، تر: حسام الدين خضور، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان 2003.
- 4- أمنة بلعلی: الرواية الجزائرية بين تخیل التاريخ وتأويله، أبحاث الباحة الأدبي الخامس، 1433 هـ.
- 5- برهان غليون: المحنة العربية (الدولة ضد الأمة)، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط2، 1994.
- 6- بشير مفتي: المراسيم والجنائز، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1998.
- 7- لبسالم حميش: العلامة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، آفاق عربية (59) (شهرية)، نوفمبر 2002.
- 8- بسام موسى قطوس: سيمياء العنوان، المكتبة الوطنية، بدعم من وزارة الثقافة، ط1، 2001.
- 9- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، مجلد 12، د. ت.
- 10- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء. الزمن. الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط1، 1990.
- 11- فورستر: أركان الرواية، تر: موسالقااضي، جروسيرس، لبنان، ط1، 1994.
- 12- نعيم تشومسكي: قوى وآفاق تأملات في الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي، تر: ياسين الحاج صالح، دار العطاء للنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، ط1، 1998.
- 13- نزار قباني: هوامش على دفتر النكسة، د ط، د ت، النسخة موجودة على موقع: nour.book.com
- 14- نضال الشمالي: الرواية والتاريخ، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2006.
- 15- معنى علامة في المعاجم والأنطولوجيا، على الرابط: <https://ontology.birzeit.edu/term/%D8%B9%D9%84%D8%A7%D9%85%D8%A9>
- 16- محمد القااضي: الرواية والتاريخ، دراسات في التخیل المرجعي، دار المعرفة للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2008.
- 17- هويدا صالح: صورة المثقف في الرواية الجديدة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013.